قال الحافظ ابن حجر: «وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهبَ ما كان رسولُ الله ﷺ وَجَدَهُ من الرَّوْع، وليحصل له التَشَـوُّفُ إلى العَوْد...»[1].

وقد أيقن رسول الله ﷺ بعد هذا كله أن الله تعالى قد اختاره رسولاً، وصار يتلقى القرآن عن طريق جبريل فحمل أعباء الرسالة وأخذ يدعو إليها واستمر جهاده ثلاثاً وعشرين سنة اكتمل خلالها نزول القرآن، وترسخت الدعوة والعقيدة في أرجاء الجزيرة العربية، قبل وفاته ﷺ[2].

---

(١) فتح الباري ١/ ٢٧.

(٢) ذهب عدد من المؤلفين في علوم القرآن في عصرنا إلى أن مدة فتور الوحي كانت ثلاث سنين، معتمدين في ذلك على رواية عن عامر الشعبي أحد علماء التابعين (ت ١٠٣هـ) (ينظر: محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي ص١٢٥، ومحمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص٣٠، وصبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص٣٦، ومالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص١٨٥).

والذي يبدو راجحاً هو أن فتور الوحي لم يمتد ثلاث سنوات للأسباب الآتية:

١- إن الرواية المنقولة عن عامر الشعبي لا تتحدث عن فتور الوحي أولاً، وهي رواية غير موثوقة عند أهل العلم ثانياً، وجاء فيها «بُعِثَ لأربعين، وَوُكِّلَ به إسرافيلُ ثلاثَ سنين، ثم وُكِّلَ به جبريل» (ينظر: ابن حجر: فتح الباري ١/ ٢٧). وقال ابن سعد في شأن هذه الرواية: «فذكرتُ هذا الحديث لمحمد بن عمر (يعني الواقدي شيخه) فقال: ليس يَعْرِفُ أهلُ العلم ببلدنا أن إسرافيل قُرِنَ بالنبي ﷺ وأَنَّ علماءَهم وأهلَ السيرة منهم يقولون: لم يقرن به غير جبريل من حين أنزل عليه الوحي إلى أن قُبِضَ ﷺ» (الطبقات الكبرى ١/ ١٩١).

٢- إن ما ورد في روايات فتور الوحي لا يحدد المدة التي كانت بين نزول أول سورة العلق ونزول أول سورة المدثر، ويبدو أنها لم تطل كثيراً، ففي رواية البخاري «وفتر الوحي فترة، حتى حزن رسول الله ﷺ» (صحيح البخاري ٦/ ٢١٥)، وفي طبقات ابن سعد «لما نزل الوحي بحراء مكث أياماً لا يرى جبريل، فحزن حزناً شديداً» (الطبقات الكبرى ١/ ١٩٦)، وفي السيرة النبوية لابن هشام «قال ابن إسحاق: ثم فترالوحي عن رسول الله ﷺ فترة من ذلك، حتى شق ذلك عليه فأحزنه» (السيرة النبوية ١/ ٢٤١). =

المبحث الرابع

كيف تلقىٰ رسول الله ﷺ القرآن

ليس من شأن البشر التلقي عن الله تعالى مباشرة، وقد أكدّ القرآن ذلك، وبيَّنَ السُّبُلَ التي يُبَلِّغُ اللّٰهُ بها كلماتهِ إلى المصطفَيْنَ من عباده، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى].

فهذه الآيات تُبَيِّنُ أَنَّ هناك ثلاثَ طرق لتبليغ المعرفة الإلهية هي:

١- الوحي: ومعناه في اللغة الإعلام الخفي[١]، وقد يكون بالرؤيا الصادقة أو بالإلهام، وهو أن يلقي الله في النفس أمراً يبعث على الفعل أو الترك[٢].

٢- من وراء حجاب، كما كلَّم اللهُ تعالى موسىٰ، عليه السلام (سورة النساء ١٦٤ وسورة طه ١١).

٣- الرسول، وهو الملَكُ الذي ينزل إلى الانبياء والرسل[٣].

= ٣- إن انقطاع الوحي ثلاث سنوات لا يتناسب مع ما وجد فيه رسول الله ﷺ نفسه من التطلع إلى لقاء جبريل وما أصابه من الحزن بسبب تأخر ذلك بعض الوقت، فلو كانت مدة انقطاع الوحي ثلاث سنوات لأدى ذلك فيما أحسب إلى أحد أمرين: إما نسيان القضية كلها، وإما أن يؤدي ذلك الحزن بحياته ﷺ ومن ثم فإن الراجح أن مدة فتور الوحي كانت أياماً أو أسابيعَ معدودة (ينظر: ابن حجر: فتح الباري ١/ ٢٧ و ٨/ ٧١٠ و ١٢/ ٣٦٠).

(١) ابن منظور: لسان العرب ٢٠/ ٢٥٧ وحي.

(٢) المصدر نفسه ١٦/ ٢٨ لهم.

(٣) ينظر: الطبري: جامع البيان ٢٥/ ٤٥.

وقد أشارت الآية السابقة إلى أن ما أوحاه الله إلى النبي محمد ﷺ هو من جنس ما أوحاه إلى الأنبياء السابقين ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى]، وقد أكدت هذا المعنى آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ . . . ﴿١٦٣﴾﴾ النساء].

وقد سُمِّي نزول جبريل عليه السلام بالقرآن على رسول الله ﷺ وَحْياً لأنه أَسَرَّهُ على الخلق، وخَصَّ به النبيَّ المبعوث إليه[1]. فلم يكن الصحابة يرون الملك وقت نزوله بالقرآن، مع أنهم شاهدوا آثار نزوله.

ولا شك في أن الوحي من الغيب الذي لا يُعْرَفُ بالحواس ولا يدرك بالعقل المجرد، ومن ثم فإن القول في حقيقته وكيفيته يتوقف على ما ورد عنه في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وقد جاء في عدد من الأحاديث والآثار وصف لحالة النبي ﷺ وقت نزول جبريل ٥ بالقرآن، منها ما يتعلق بالجانب الخفي من الوحي، ومنها ما يتعلق بآثاره الظاهرة التي لاحظها الصحابة، رضي الله عنهم.

أما الجانب الخفي من الوحي فقد سأل الصحابة عنه رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن عمرو: «سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسولَ اللهِ: هل تُحسُّ بالوحي؟ قال: نعم، أسمع صَلْصَلَةً، ثم أسكت عند ذلك»[2].

وروى البخاري «عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام، رضي الله عنه، سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، كيف يأتيك الوَحْيُ؟ فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وهو أَشَدُّهُ عَلِيَّ، فيَفْصِمُ عني وقد وَعَيْتُ ما قال، وأحياناً يَتَمَثَّلُ لي الملكُ رجلاً فيكلمُنِي فَأَعِي ما يقول»[3].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب ٢٠/ ٢٥٨ وحي.

(٢) قال الهيثمي (مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٦): رواه أحمد والطبراني، وإسناده حسن.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٤، والترمذي: كتاب السنن ٥/ ٥٥٨.

ويؤكد هذا الحديث أن للوحي صورتين، لكن يجب ملاحظة تأكيد النبي ﷺ على وَعْيه لما يلقيه إليه الملك في كلتا الصورتين، فهو يتلقاه بقلبه وينطبع في عقله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

وأما الجانب الظاهر المتعلق بآثار الوحي المحسوسة فقد تحدث عنها الصحابة، رضوان الله عليهم، ونقلوها إلى أجيال الأمة، وأول ما لاحظوا أن النبي ﷺ كان يعاني من التنزيل شِدَّةً، فقد نقل مسلم بن الحجاج في صحيحه عن عبادة بن الصامت أنه قال: «كان نبي الله ﷺ إذا أُنزل عليه كُرِبَ لذلك»[1]. وأنه إذا أُنزل عليه الوحي أخذته البُرَحاء ـ كما روىٰ البخاري[2] ـ والبُرَحَاءُ شِدَّةُ الحُمَّىٰ، وهي هنا شِدَّة الكرب من ثِقَلِ الوحي[3]. وقد لاحظ الصحابة تصبب العرق من جبينه، قالت السيدة عائشة، رضي الله عنها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فَيَفْصِمُ عنه، وإن جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً»[4].

وكانت تلك الشِّدَّةُ المصاحبة للوحي التي تغشى رسول الله ﷺ يمتد تأثيرها إلى ما يتصل به أو يلامسه، فها هم الصحابة يشهدون رسول الله ﷺ يُوحَىٰ إليه وهو على ناقته، فتغشى الناقةَ تلك الشدةُ، كما روىٰ ابن سعد عن أبي أروىٰ الدَّوْسي، قال: «رأيت الوحي ينزل على النبي ﷺ وإنه على راحلته، فترْغُو وتفتل يَدَيْها، حتى أظن أن ذراعها يَنْقَصِمُ، فربما بركت، وربما قامت مُوَتِّدَةً يَدَيْهَا، حتى يُسَرَّىٰ عنه من ثقل الوحي، وأنه لَيَتَحَدَّرُ منه مثل الجُمَان»[5].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١١/ ١٩٠، والبيهقي: دلائل النبوة ٧/ ٥٤.

(٢) ينظر: ابن حجر: فتح الباري ٥/ ٢٧٢.

(٣) ابن الأثير: النهاية ١/ ١١٣، وابن منظور: لسان العرب ٣/ ٢٣٣ (برح).

(٤) صحيح البخاري ١/ ٤.

(٥) الطبقات الكبرى ١/ ١٩٧، وينظر: البيهقي: دلائل النبوة ٧/ ٥٣. وقال الصحابي عبد الله =

وها هو زيد بن ثابت كاتب الوحي يقول: «إني لقاعد إلى جنب النبي ﷺ إذ أُوْحِيَ إليه، وغَشِيَتْهُ السكينةُ، فوضع فخذه على فخذي، قال زيد، فلا والله ما وجدت شيئاً قَطُّ أَثقلَ مِنها» وفي رواية: «فثَقُلَتْ عليَّ حتى خِفْتُ أن تَرُضَّ فخذي»[1].

وكان مما لاحظه الصحابة عند نزول الوحي ما رواه عدد من المحدِّثين عن عمر بن الخطاب أنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يُسْمَعُ عندَ وجههِ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النحل»[2].

إن المتأمل لحالة نزول الوحي في جانبيها الغيبي الذي وَضَّحَهُ النبي ﷺ والمحسوس الذي وصفه الصحابة، رضي الله عنهم، يدرك أنها أبعد ما تكون عن حالة السبات الطبيعي الذي يعتري المرء في وقت حاجته إلى النوم، فإنها كانت تعرو النبي ﷺ قائماً أو قاعداً أو سائراً أو راكباً، بكرة أو عشياً، وكانت تعروه فجأة وتنقضي في لحظات يسيرة، لا بالتدريج الذي يعرض للوسنان الذي يغفو ويغرق في النوم، كما أنها حالة تباين كلياً تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التي تَصْفَرُّ فيها الوجوه، وتبرد الأطراف، وتَصْطَكُّ الأسنان، وتتكشف العورات، ويحتجب نور العقل، لأنها حالة تتسم بالجلال والوقار، وهي مبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة[3].

= ابن عمرو: «أُنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة، وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها» قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٣): «رواه أحمد، وفيه ابن لهيعة، والأكثر على ضعفه، وقد يُحَسَّنُ حديثه وبقية رجاله ثقات» وينظر: الساعاتي: الفتح الرباني ١٨/ ١٢٥.

(١) ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) عبد الرزاق: المصنف ٣/ ٣٨٣، والترمذي: كتاب السنن ٥/ ٣٠٥، والبيهقي: دلائل النبوة ٧/ ٥٥.

(٣) ينظر: محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص٧٠ وما بعدها.